على هامش الأدب والنقد

تأليف الأستاذ على أدهم

بقلم الأستاذ نقولا الحداد

الأستاذ على أدهم واسع العلم عريض الاطلاع عميق التفكير ؛ أعني أنه جمع الأبعاد الثلاثة فى حيز ذهنه ، وأبى إلا أن يجمعها بالبعد الرابع لكى تستوفى النسبة قسطها من قلمه ، وهو فيض الإنتاج . فقد أخرجت المطابع له إلى الآن ١٢ كتاباً . والله يعلم بما عنده من كتب أخرى معدّة للطبع .

وقد قرأت أمس له كتاباً ممتعاً عنوانه « على هامش الأدب والنقد » افتتحه بفصل « النقد والشخصيات » وإذا به يستفيض فى الأدب النفسى بحيث يجرد الأديب والعالم عن أنفسهم ويجعل لهم كياناً غير شخصيتهم . والنقد يتوجه إلى هذا الكيان .

ثم تناول التقدير الفنى بين النظريتين العلمية والفنية . وبسط الفرق بين العلم والفن ببحث جامع مانع . ثم عطف على فن كتابة التراجم وبحث نشأته وما طرأ عليه من تطور فى الكتب المقدسة فى الصين والهند ومصر الخ . واسترسل إلى العصر الحاضر .

وفصله فى النقد الفنى بين المذهب الاجتماعى والفردى دفعه إلى فيافى الفلسفة النفسية والعقلية والفلسفة العامة فأعطاك دراسة فيهما لا أظن أن لها ضريبا فى مباحث الآخرين ، إلى أن ساقه البحث إلى الكتب والكتاب ، ثم ارتفع به إلى أثر النبوغ والعبقرية فى الأدب والفن ، وشرح لنا الفروق بينهما . وهو بحث لا تنك فلسفى عميق . إلى أن قذف به النقد إلى دار الشيطان (أعيذه منها) فى الشعر الحديث . وقد راجعت هذا الفصل مرتين لما وجدت فيه من متعة عقلية ونفسية .

ثم تساءل قائلا : هل تجدى مطالعة التاريخ (الفقير بالحراقات) وهناك أبحاث لا تخطر لك على بال تدلك كيف بدىء التاريخ منذ ثمانمائة سنة ميلادية . وهى بدء الكتابة بالحروف الصوتية التى يقال إنها من اختراع الفينقيين . وجرى على ما اعتور التاريخ من الغث والسمين والحق والباطل والعلم والجهل إلى غير ذلك من طبائع التاريخ .

ثم تحول من هذه المباحث العلمية النقدية إلى نقد المتنبى الشاعر العظيم ، وشرحه تشريحاً نقدياً وكشف لك عن سريرته ودل على قلبه ونزعته وطموحه فوصفه فى تدينه وغروره وحزمه ومكانته فى أهيل عصره (كما يسميهم هو) ونظريته فى حساده ؛ حتى إذا خرجت من هذه النقدات التى كانت كمدى المشرح فى البدن السمين ظهرت لك أخلاق المتنبى ونفسيته وانجلى لك المتنبى الحقيق كأنك عشت معه .

ثم مال إلى تمام قسطاً من نقده فقابل بينه وبين المتنبى بحيث ترى أن أدهم دخل إلى سريرة هذين الشاعرين العظيمين وظفر بمزية كل منهما فى الشعر .

ولم يحرم الشاعر ابن هانىء من كلمة فلسفية رائقة فيه ، ويريك أن شعره ينزى بالأبيقورية ، وهى أن الحياة فى نظره فترة قصيرة ونهزة عارضة ... وليست جديرة بأن يقضيها المرء فى طلب الغايات البعيدة وليس فيها أعماق سحيقة ترهب الناظر . وفى الوقت نفسه كان يقنص اللذات ؛ فهو يعيد حياة سليمان الحكيم الذى ماترك متعة إلا تمتع بها ، وأخيراً قال : باطل الأباطيل ، الكل باطل .

ولأدهم بعد ذلك فذلكات عن سير بعض الخلفاء . وفذلكة عن أدب رابندرات طاغور الشاعر الفيلسوف الهندى الذى هو خير أنموذج للأدب الوطنى .

فى هذا الكتاب الفذ فى موضوعاته ومباحثه تجلت مقدرة الأستاذ على أدهم فى التفكير والتعبير والتحبير .

روضات الفردوس :

ثم إن الأستاذ على أدهم أتحف اللغة العربية تحفة نادرة المثال فى كتابه الأخير روضات الفردوس وهو محاضر منافشات لأرواح

أعلام التاريخ فى جميع المذاهب الاجتماعية المختلفة . وقد تولى العالم جيتى رئاسة هذا المجلس الخيالى . وكان أبرز المتناقشين فيه كارل ماركس أبو الاشتراكية . وقد احتدم النقاش بينه وبين فولتير فيما آل إليه الأمر فى روسيا عن يد لنين الذى اعتنق إنجيل ماركس بحروفه ، وزعموا أن الاشتراكية لاتقوم على يد الأكثرية فى البارلمان بل على يد الثورة .

وكانت مارى ستيورت ملكة فرنسا وسكوتلاندا فى هذا المجلس الروحانى ، وكانت كل هنيهة وأخرى ترى كلمة تحاول بها أن تزج نفسها فى المناقشة ، ولكنها كانت كالسيدة التى تشتغل فى التريكو تقول الكلمة وتخاف أن تخطىء فى القطبة .

والعجيب أن نابليون تكلم فى الخلق . وعنده أن العقل بغير الخلق نكبة على الأمم . فهو شعلة يحملها طفل ويجب إطفاؤها بأى ثمن حتى ولو اقتضى ذلك موت حاملها . ولكن كارل ماركس جبهه بقوله : هذا ما فعله تلميذاك هتلر وموسوليني . وما تسميه خلقاً أسميه أنا جشعاً ، وما تسميه ظهوراً وصعود نجم ليس إلا تكديس الأرباح المسروقة من جيوب الوجد الحقيق للثروة .

فيسأله جيتى : من هو موجدها ؟ فيجيب كارل ماركس . هو العامل المملوك .

وهكذا يتمادى كارل ماركس فى النقاش يحمد ويتدخل فولتير ومارى ستيورت وجيتى . وإذ يقسم نابليون الدولة إلى ثلاث طبقات : القادة ، وهيئة الضباط ، والجند ، تنبرى الملكة مارى ستيورت وتضيف إليها طبقة رابعة وهى طبقة النساء . ولكن نابليون لا يعطيهن أهمية اجتماعية خارج المنزل . فى كل هذه المناقشات يكون صوت كارل ماركس ساطعاً .

ثم يأتى وشنطون محرر أميركا ويجتهد أن يدخل الرب فى الموضوع فيحتدم النقاش بينه وبين فولتير . ثم ينبرى نابليون ويزج البابوية والإمبراطورية فى البحث . ويكون جيتى فى كل موضوع ممسكا الميزان لتأييد الاعتدال والعدالة .

وهكذا ينتقل الجدال من الاشتراكية إلى الشيوعية إلى الدين إلى السياسة إلى جميع المذاهب الاجتماعية وأخيراً إلى الحرب . ونابليون يؤيد القوة كعامل فى الحضارة . ووشنطون يؤيد الإيمان كأساس لها .

ولما اشتد الخلاف استدعى جيتى روح أحد الشيوخ الأحياء وهو بنط فى تومه فى البرلمان . وسأله عن سياسة أميركا الحالية . فقال له : إننا نسير غير مرتبطين باتفاقات دائمة مع أى جزء من أجزاء العالم .

ويحتدم النقاش بين وشنطون والسناتور (الشيخ) إلى أن يتطرق إلى عصبة السلام وكانت فى رأى وشنطون ثوب تذكر لعصبة الحرب ونصحاً بالابتعاد عنها .

وهنا اشتبك كارل ماركس وفولتير فى موضوع عصبة السلام ، واقتضى الأمر التعريض بهتلر وموسوليني ، ثم بالفاشية .

ثم يستدعى جيتى روح أحد الفاشيين من الأرض وهو نائم لكى يسألوه عن مذهبه . وإذ يرى هذا الفاشى مارى ستيورت يقول : أسيدة فى حلقة رقص أو ربما كانت مغنية فى الأوبرا . والنساء فى إيطاليا يطعن موسوليني ويلدن الأطفال فى أقصى سرعة — إلى غير ذلك من الحديث عن تربية الأطفال لأنه هو مدرب للأطفال وأنه يصوغهم كما يشاء موسوليني .

ثم يستدعى جيتى روح شخص نازى ويحتدم الجدال بين هذا النازى وفولتير ومارى ستيورت إلى أن يقول لهذه الملكة أى سلوك لجور ودعارة تسلكه امرأة هنا . ما الذى تصنعينه هنا محفوفة بالرجال — اذهبى واعملى أطفالا لوطنك والفوهرر — وما قال كارل ماركس كلمة حتى كان ذلك النازى يصيح به : أيها اليهودى القذر !

ثم استدعى جيتى شيوعياً من تومه ، فجرى بينه وبين كارل ماركس جدال لا يسعه هذا المقال . فعلى القارئ أن يطالعه فى الكتاب الذى نحن بصدده . وفيما كنت أقترب فى هذا السفر النفيس إلى آخره كنت آسف أنه سينتهى وأنا لا أريد أن ينتهى لأنه كان آخذاً بمجامع لبى . فأشكر لصديقى الأستاذ على بك أدهم انتقاءه هذا الكتاب ونقله إلى العربية لمؤلفه العلامة الإسبانى سفاد وردى ماداريا جا

نجيب الحداد